

بسم الله الرحمن الرحيم

من مضي على هدي السلف

صديقنا الشيخ "خلف"

الشيخ د. محمد ياسر القضماني

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد:

فرحم الله أختانا المبارك الأستاذ الفاضل الشيخ المدقق المحقق الشريف خلف بن مفضي المطلق الشهابي الحسيني¹.

وها أنا أحبُّ أن أُبثِّ إخواني شجوناً عن هذا الأخ الرَّاحل الذي عرفته في الكويت وفي الشام، وأقفُ في مواقف وكلمات لها دروسها النَّافعات، وآثارها الكريمة، ومن الجفاء مع أهل الوفاء أن ينتقلوا عن ديانا الفانية دون أن نعرِّف بهم، أو نرشد لشيء من منافعهم!

● الشَّغفُ بالعلم الشريف:

إذا دَرَسنا سِيرَ المحققين والمتبحرين في أي علم أو فنٍّ فإننا نجدُ في الغالب أن هذا التبحر له جذورٌ من نعومة الأظفار، وبدايات الأعمار! تذكرُ زوجُ صديقنا الشيخ خلف _ رحمه الله _ أنه لا ينام إلا والكتاب بيده، وكان في السن المبكرة خطيباً بمسجد قريته ولم يجاوز الخامسة عشرة، وكان الأوَّل دائماً على صفه في المدرسة، وقد نال الرتبة الأولى على المحافظة مرتين.

وكان _ رحمه الله _ يُكثر من الكتابة حتى إن القلم قد أحدثَ حُفرةً في يده، وهذا حال العاشق للعلم، وقد أقسم الله بالقلم وما يسطرون!

وهذه عادةٌ من رصدهم الله للنفع والدلالة والهداية والتعليم وإرشاد الخلق لرب العالمين.

¹ وكتابتي مجردة عن شؤون الترجمة المعتادة فهي موجودة في مظاهها، ولكني أحببت أن أذكر شجوناً ومواقف تدل على خلال أهل الكمال!.

تقول زوجته إن انقطع تيار الكهرباء في الليل أوقدنا بعض القناديل، وربما كُتِبَ وأنا أشعل له أعواد (الكبريت) الواحد تلو الآخر من استغراقه فيما يكتب أو يحقِّق، وهو يُورِدُ الأدلَّةَ والتعليقات قبل أن تُنسى!

تقول زوجته: قلتُ له مرَّة: هل تعتقد أن هذه الكتابات والتحقيقات سيقراها أحد؟! فقال: بإذن الله تعالى، وستكون مفيدة ومتميزة!! أقول: وهكذا كان!!

نعم! كانت الكُتُب لا تفارقه لا في حِلِّه ولا في ترحاله! ولا يتوقف عن كتابة التعليقات والحواشي على كُتُبِه هنا وهناك.

واشتغل في أوقاتٍ في قريته حالَ صغره في مصنع كبس (البلوك)، وفي ساحة السُّوق، ولم يَمُدَّ يده على عادة أهل المروءات.

ومما أحب من كتب المعاصرين كُتِبَ: الشَّيْخُ محمد الغزالي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي والأديب المنفلوطي — رحم الله الجميع —.

● الاعتقاد بالصالحين:

في أوائل الطَّلَب اجتمع صديقنا الشَّيْخُ خلف — رحمه الله — بالمربي الكبير الشهير الشيخ عز الدين الخزنوي — رحمه الله — فقال له: أنا أدرِّسُ في الشام في جامعة دمشق في الهندسة الكهربائية وطلب والدي أن أترك هذا؟! فقال الشيخ: أطع أباك وعسى أن يكون خيراً لك!!

فترك أخونا الشيخ خلف ذلك التخصص وتفرغ للعلم الشرعي، ولا يزال مَدِيناً للشيخ في نصحه حتى فارق الدنيا! ويعتبره أول شيخ له في العلم ويقول — رحمه الله —: بايعتُ الشيخ وأخذتُ عنه السُّلوك والتربية وتزكية النفس والتخلية والتحلية.

أقول: وقد رأيتُ أن من يُدرِّس أو يُؤمُّ ويخطب والشأنُ أنه مهما تزلَّع من العلوم — إن لم يكن له طريقٌ واعتقاد بأحد الأكابر — فعبأؤه لا رُوح فيه، ولا نضرة على فيه أو قوافيه!

هذا سرُّ التأثير والنفع للكبير والصغير!؟

الاتصال بالرجال له مجال وأيُّ مجال كما حصل مع أخينا الشيخ خَلْف _ رحمه الله _ فقد رافقه حسُّ الارتباط بالشيخ الحزنوي ومن يمتُّ له بِصِلَةٍ في حياته إلى الممات. فنفعنا الله بالصالحين، وأعاد علينا من أنوراهم وبركاتهم وعلومهم وأسرارهم آمين.

● النزول إلى الشام قبيل الحمام:

وكأني بصديقي الشيخ خلف _ عليه الرحمة _ يحنُّ إلى وطنه ويودُّ أن يمرضَ في أرضه، فما إن نزل إلى دمشق قبل عشرين يوماً من وفاته حتى رجأ أن يجتمع بمن يحبُّ فاتصل بأخي أبي طارق ليُسِّهل الحديث معي، وكانت ساعة غالية عندما اجتمعنا، وأشفقتُ من حاله، وتضاعف الأتعب عليه وكثرة الأوصاب وقدَّر الله وما شاء فعل!

كانت عدَّة لقاءات وبعضها في المشفى، وما انفكَّ _ رحمة الله عليه _ وهو على السرير يحدثني عن كتبه الأخيرة، وشجون في التحقيقات والكتاب الفلاني ماذا ينقصه، والفلاني لو كان كذا لكان أحسن، والفلاني لو كان معه حاشية كذا لكان أجود!

ومَّا رأيته يذكُّره بشغفٍ أن يتِمَّ من كتبه: (كفاية المتفقهين بتوشيح إعانة الطالبين على قرَّة العين) "أربعة آلاف صحيفة" وينظر فيه على (جهازه الحاسوب) وهو مستلقٍ على السرير، وقد قرروا عمليةً صعبةً عليه بعد ساعات!!

وأخبرني عن عنايته بالفتاوى التي دَبَّجها إجابة عن الأسئلة التي تردُّ عليه في صفحته على (الشبكة)، ولا يزال يجيب عن أسئلتهم حتى الوفاة!

وهذا كان حاله في البيت الذي نزل فيه بجوار مسجد (عبد الرحمن بن عوف) بدمشق، وقد أخبرته عن مطالعتي لطبعته الثانية لتحفة الطلاب وعن جهده الذي ظهر من الصحيفة الأولى، وهذا ما يسعد المحقق أن تُتابع عمله، والأستاذ يتأثر إن تعب ثم يزهّد الناس في مطالعة ما كتَب أو حقَّق!!

● إهداؤه للكتب:

زرت أخي الشيخ خلف _ رحمه الله _ في فندق (عمر الخيام) على ساحة المرجة بدمشق وكانت أيامه الأخيرة وقد اجتمع بعض قرابته وأصحابه ولا يدرون أنهم يودعونهم بزيارتهم تلك، واجتمع به قرابة لم يرههم من سنين، وبعضهم لم يره من قبل، والعشيرة مباركة وكبيرة _ حفظهم الله _ .
هشَّ أخي لزيارتي، وتناول قلماً وهو في غاية وعيه مع إرهابٍ ظاهر وكتب إهداءً لي لكتابه "تحفة الطلاب"² صبيحة الأربعاء 24 من المحرم 1443 الموافق بـ 1 / 9 / 2021 م أي قبل أسبوعين من وفاته.

وكان قد زارني في بيتي في حي المهاجرين بدمشق قبل سنين وأهداني كتابه: تقريب منهاج الطالبين وعمدة المفتين³ في 20 شعبان سنة 1430 هـ وأهداني في الكويت أيضاً كتابه: روض الطالب ونهاية مطلب الراغب للعلامة شرف الدين إسماعيل المقرئ البمني (ت 837) (مجلدان).
وكتاب الأنوار لأعمال الأبرار للعلامة يوسف إبراهيم الأردبيلي (المتوفى في حدود 779) (ثلاثة مجلدات) وهذا والذي قبله بتقديم أستاذنا الشيخ الدكتور حسين العلي _ حفظه الله _⁴.

² وكان قد أهداني الطبعة الأولى للكتاب ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة 1427 هـ .

³ كتاب نافع جداً جرّده من الخلاف، وحذّف الضعيف، وذكر الصحيح المعتمد، إن صحّح الإمام النووي الضعيف أو خلاف المعتمد، وهذا من أهم ما يكون في الكتاب (وقد شرّحه الشيخ ولم يطبع)، وقد قرأت هذا الكتاب على شيخنا الشيخ قاسم النوري _ حفظه الله _ محقق كتب كثيرة للسادة الشافعية ومنها: البيان للعمراني.

⁴ أشركت مع صديقي الشيخ خلف _ رحمه الله _ في الانتفاع بالشيخ حسين عبد الله العلي _ حفظه الله _ فقد انتفعت به كثيراً وهو من وجوه من انتفعت به جزاه الله عنا خيراً وقد قدم لي كتابين طبعاً : الأول : مناسك الحجيج، والثاني: التدخين داؤه ودواؤه.

وقد كتب الشيخ خلف في إجازته برواية الحديث والفقه: قرأت العلم على عدد من فقهاء الشافعية وأشهرهم: شيخني وأستاذي الكبير الشيخ الدكتور حسين عبد الله العلي الشافعي مذهباً البوكمالي بلدة وولادة ونشأة. وقال فيه أيضاً المتفتن في كل العلوم الشرعية فقهاً وأصولاً وتفسيراً ولغة ونحواً وتصوفاً ومنطقاً وغير ذلك.

وقد عزّيت شيخنا وشيخ المترجم الشيخ حسيناً بوفاة المترجم، وأخبرني أنه كان يحثه على إتمام بعض الكتب.

أقول: ومن عظيم المنن الإلهية على الطالب رضى أستاذه العدل عليه، وثناؤه على علمه وعمله.

ووصلني بعد وفاة أخي الشيخ خلف _ رحمه الله _ كتابه الماتع: (الحوارات والاختلافات الفقهية) (مجلدان وهو رسالته العلمية لنيل شهادة الدكتوراه) وكان قد أعطاه لأخي عندما زاره في عيد الأضحى الماضي في منزله بالكويت. وهذا من الموافقات الغريبة، فعناية الشيخ بإهداء الكتب وشجوتها _ أن يصلني منه كتابٌ بعد وفاته!.

● الشيخ خلف الأب:

لم تمنع أعباء الدعوة إلى الله تعالى، والتدريس والإمامة والخطابة والمسؤوليات والمشاركات الاجتماعية هنا وهناك أن يكون المترجم مع أهله وولده، فقد سمعت له قصيدة يذكر فيها أبناءه وأهله، ويُعني لهم بصوته العذب، فذكرت الحديث الشريف: فأعط كل ذي حق حقه. وهذا من الروائع التي نحب أن تشيع وهي مقصود شرعي كبير!

● من نصائحه العلمية:

يقول الشيخ رياض العيسى: كان الشيخ خلف كثير التنبيه على التصحيح والتحريف الواقع في الكتب، وقد كانت ولا تزال فتاوى خاطئة اعتمد فيها المفتي على ما كتبت فوق الخطأ الفاحش إثر ذلك!

أقول: وسمعت من بعض مشايخنا أنه راجع شخصاً أفتى بأمر بأنه يجوز ولما راجعه قال المجيب: رأيتُه في كتاب كذا، وكان النصُّ (يجوز)، والحقُّ أنه قد سقطت (لا) من الطباعة، فهذا شأن من يكون شيخه الكتاب!!

وقرأ المترجم أيضاً على والد زوجته العالم الملا صالح عبد العزيز _ رحمه الله _ ومن الأزهريين: الشيخ عبد العزيز الشهراوي المعروف بالشرقاوي، والشيخ أحمد ممدوح، ومن قرأ عليه ممن قرأ على السادة الحضارمة: الشيخ العالم عثمان المهيني، فقد اجتمعت في الشيخ خلف المدارس والمشارب: الشامية والحضرمية والأزهرية.

وقد صدق من قال: لا تأخذ العلم من صُحُفي، ولا القرآن من مصحفِي!
يقول الشيخ رياض: وقد اشتغلنا مع الشيخ خلف بخدمة (النهاية في شرح الغاية) لأبي البصير
الشبشيرِي على نسختين حجريتين، وانتهينا من قسم العبادات ولم تكمل بسبب مرض الشيخ _
رحمه الله _.

ومن الكتب التي لم تُطبع للشيخ:
تبصرة الناشئين في أهم مبادئ الدين (ونُشر بعضه في مجلة النور الكويتية) و (الإبهاج بحواشي
تحفة المنهاج).

● كلمات من فقه الرّاحل:

اختر من كلام الشيخ _ رحمة الله عليه _ في الفقه ما يلي:
الاختلاف نوعان:
سائغ محمود، وهو الاختلاف في الفروع وما هو محل للاجتهاد.
محرم مذموم، وهو الاختلاف في أصول الدين والأحكام الثابتة بالأدلة القطعية.
الاختلاف المشروع يشترط له أمران:
الأول: أن يكون في أمر للاجتهاد فيه مجال، أي يجوز فيه الاجتهاد، وهو كل حكم شرعي ليس
فيه دليل قطعي، وأما ما لا مجال للاجتهاد فيه فلا يجوز الاختلاف فيه، وهو الأحكام المعلومة من
الدين بالضرورة والبداهة، أو التي ثبتت بدليل قطعي من حيث الثبوت والدلالة، وكذلك الأحكام
الشرعية التي أجمع عليها العلماء، بناء على أدلة شرعية، فتصبح أحكامها قطعية، ولا مجال فيها
للاجتهاد وبالتالي: لا يجوز الاختلاف فيها.
الأمر الثاني: أن يكون الاختلاف صادراً عن له قدرة على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها
وهو المجتهد الذي توفرت فيه أهلية الاجتهاد، وشروطه⁵.

⁵ ص (834) الجزء الثاني من كتابه: الحوارات والاختلافات الفقهية _ دار الفكر طبع وزارة الأوقاف الكويتية 1441 هـ -
2019 م.

● مصارحة طيب وتجلد الرجال:

تقول زوجة الراحل: قال له الطبيب أنت مريض بالسرطان ونوعه نادر وقاتل وخبيث!! وأنا في ذهول من مصارحة الطبيب بهذا!

وما كان من زوجي إلا أن رفع يديه في لحظة ضعف وانكسار وطلب من ربه أن يصبر ولا يتألم، وكان يعجب الأطباء من تجلده وثباته!

أقول: يقول أخي أبو طارق: وصل الشيخ خلف _ رحمه الله _ إلى حال أنهم ظنوا أنه هالك قطعاً وأنه في عداد الأموات، ودبت فيه قوة، وانتعش ومضى على رجليه، كأنه كُتبت له حياة جديدة!!

● قبيل الأجل والوصية:

تقول زوجته: وجدت في البيت وصيته: أن لا تكون نياحة، وبأن يُحجَّ ويُعتمر عنه، وقد حجَّ أكثر من اثني عشرة حجة، وأن يُضحى عنه، وأن يُدفن في المكان الذي يموت فيه⁶.

● طلب الشهادة:

وفرحت غاية الفرح عندما علمت أنه قال: أنا أطلب الشهادة لأبي سمعت أنه إذا لم يطلب الرجل الشهادة من الله تعالى ولو مرة في العمر فهو منافق!!

فانظروا إلى هذه الهمة العلية والنفس الأبية!!.

⁶ وقد دُفن في بلدته _ رحمة الله عليه _ وما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه.

● الأجل المحتوم:

جاءني النبأ بانتقال الأخ الصديق المبارك العالم فهرعت إلى المشفى⁷ فوصلتُ بعد دقائق قليلة ورأيتُ بنفسِي تجلّد أهلي ورضاهم سرورهم في الوقت نفسه بأنَّ آخر ما نطلق به الشهادة!! نعم إنها العطية! بل عطية العطايا، وأسنى الهدايا، من ربِّ البرايا، وهل ينالها كلُّ أحد؟! لا يطمع بها ويحتُمُّ بها عمره إلا محبُّ صادق، وموحدٌ مخلص، عاش حياته على التحقق بمضامينها، وتكاليف عهودها.

رأيتُ أخي مسجّي بشخصه المسلم للآله المكرّم لأهل التكريم، وصفوة أهل الصراط المستقيم، ولزوم شجون وشؤون العهد القديم من عهد (ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا)!! كانت الروح على وعدٍ قُضي بأن تغرب عن الجسد مع غروب شمس الخميس التاسع من صفر 1443 الموافق لـ 2021 / 9 / 16 بعد مرض مدنف قرابة سنة ونصف من المصابرات والتسليمات لربِّ الأرض والسموات، ورضى وشوق لُفوق! كانت لحظةً غالية عندما وضعت المسك الهندي بيدي على جبهته ومسحت به وجهه ومُحيّاه الكريم الذي لم يخضع إلا للربِّ العظيم، وألف رؤية الكرام من أهل العلم العظام، وأهل الشيم والهمم.

هرعت إليه واصلتُ عليه قبل أن يُغادر في ثلثة من أهله ليلة الجمعة إلى قريته عشائر غربي التي اشتهرت بقرية (حمدان) وبعد صلاة الجمعة في جامع أسامة بن زيد صلوا عليه في لفيق من الأفاضل وتلامذة الشيخ الحزنوي _ رحمة الله عليه _ وصلى عليه الشيخ حمود الجلعم إمام مسجد الحمدان ودفن في مقبرة هذه القرية.

ونحن لا نقول إلا ما يرضي مولانا وخالقنا: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، واستودعناكه يا من لا تضيع لديه الودائع.

⁷ وهي مشفى الدكتور هشام سنان بدمشق.

● الرؤى بعد وفاته والمبشرات:

تقول زوجة الراحل: رأى كثيرون هذا المبارك العالم في بساتين خضر، ويتبسّم كعادته وهو معافٍ من كل علة، وقد أعطى في حياته وتفنّن بالإكرام والعطاء وأعطى بالمنام، وهذا من شؤون الكرام، البذل على الدوام!.

● من نظم المترجم:

قال في إثر أوجاعه ومرضه يخاطب أهله:

دعي عنك الملامة والعتابا
ولا يغني من القدر احتراز
وإن لكل مغلوب مصيراً
وآجال الورى في كف رب
وأطلب عفوه من كل قلبي
رجوتك يا غفور وأنت ربي
وألسني ثياباً من شفاء
وإن أزف الحتام فلا تكلمي

فإن لكل ما يجري كتابا
وليست تؤخذ الدنيا غلابا
وإن لكل مطلوب مآبا
كريم منعم يهب الثوابا
لعبد مذنب يرجو المتابا
فلا توصل أمام الصفح بابا
فقد غرز الضنى في الجسم نابا
إلى عملي ويسر لي حسابا

● من مرثي المحبين:

قال الأستاذ الشيخ عبد الله سالم _ حفظه الله _ :

بكت السماء عليك والأرض
يا من ملأت العمر فائدة
والفقه نعم الفقه تحمله
وبجار فقه الشافعي إذا

وبكت عيون عافاها الغمض
بالدرس منك الشرح والعرض
ليصح فيه النفل والفرض
خرجت غاب النقد والنقض

ومضيتُ تُبرِّزُ من محاسنها

نفائساً رقصت لها الأرض

إلى أن قال :

ولزمت أهل العلم يا خلفُ

لتقوم بعدهم إذا انفضوا

فاهناً لوعد الله مرحة

ولقا النبيِّ وصحبه الحوض

وعليك من ربي منائحه

والعفو والجَنّات والروض

18 - 9 - 2021 م

هذه كلماتٌ، ومن الله نرجوا الثبات حتى الممات، واللِّقا بأهل المروّات في الغرف العليّات في هاتيك الجنّات، بجاه خير البريّات، والحمد لله على عِدَاد اللحظات آمين آمين والحمد لله ربّ العالمين.

بيّضت في دمشق الشام مساء السبت 12 من جمادى الآخرة 1443 الموافق لـ 2022/1/15 م.

